قصص الرشيد



فتح هرقلة

تصدرها نهضة مصر بالفجالة

قصص الرشيد

— ٥ —

فتح هرقلة

بقلم

ابراهيم عزوز

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر ومطبعتها

مطبعة نهضة مصر

بجانة القاهرة

هارون الرشيد خامس خلفاء الدولة العباسية . وقد كان عصره أزهى عصور المسلمين فى بغداد . فبلغت الدولة الإسلامية فى أيامه قمة مجدها . حتى تزلف إليها أكبر ملوك أوربا ، وخطبوا ودَّها ورضاها .

وجدير بأبناء العرب فى كل مكان أن يقرءوا تاريخ هذا العصر الذهبى ؛ ويقفوا على سر عظمة أجدادهم . ليستمدوا القدوة الصالحة ، والعبرة النافعة .

وإنى إذ أقدم للناشئة هذه القصص ، التى تصور هذا العصر تصويراً ، فى بعضه الصدق التاريخى ، وفى بعضه الخيال الأدبى — لأرجو أن ينفع الله بها أبناءنا ، وأن تحفز هممهم لدرس هذا التاريخ المجيد .

والله الموفق المؤلف

— ١ —

فتح هرقلة

كان الرومُ القدماء يسكنون آسيا الصغرى ، التى يسكنها الأتراكُ الآن . وكانوا يجاوِرون المسلمينَ والعربَ فى بلادِ العراقِ والشام . فكانت الحروبُ بينهم وبين المسلمين لا تنقطعُ ولا تهدأُ ، من أيام سيدنا عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه . وكانوا كلما هزمَهم المسلمون طلبوا الصُّلْح . ولكنهم كانوا يعودون إلى القتال إذا شَعَروا بقوتهم ؛ فيعود المسلمون إلى هَزْمهمْ . وهكذا ، حتى طردَهم الأتراكُ من بلادِهم ، وسكنوها بعدهم .

ومن خلفاءِ المسلمين الذين حاربوا الرومَ حروباً كثيرةً متعدِّدَةً ، الخليفةُ هارونُ الرشيد . فكانَ يخرجُ إليهم غَازِيًا كلَّ عام . وكانت غزواتُه لهم تسمى الصَّوائِف

لأنه كان يختارُ وقتَ الصيفِ — الذى يخفُّ فيه البردُ فى آسيا الصغرى — ويخرجُ للغزْوِ والقتال .

وفى صائفةٍ من هذه الصوائِف ، عزمَ على فتحِ مدينةِ هِرَقْلة . وكانتْ هذه المدينةُ حصينةً جدا ، ويعتمدُ عليها الرُّومُ فى الدِّفاعِ عن بلادِهم .

فأحْكَموا تَحْصِينَها . كما كان يصنعُ أهلُ ذلك الزمانِ فى كلِّ مدينةٍ كبيرة . فبنَوْا حوْلَها سورا منيعا ضخما مرتَفعاً ، لا يمكنُ أحدًا أن يتسلَّقَه ، أو يصلَ إلى أعلاه . وحفروا حول السورِ خَنْدَقاً عريضا وعميقا .

وكانوا إذا هجمَ أحدٌ عليهم ، ورأوا أنفسَهُم لا يقدرون على حَرْبِه وقِتاله ، دخلوا مدينَتهم وأقفلوا أبوابَها ، وتحصَّنوا وراءَ الأسوار .

وكانت جيوشُ الرشيد تحملُ معها دائماً آلاتٍ خاصةً ، لتدميرِ هذه الأسوارِ وتحطيمِها . ومن هـذه الآلاتِ

ما يسمى المنْجَنِيق ، وهو صندوقٌ كبيرٌ من الخشبِ والحديد ، يشبهُ القاربَ الصغير ، ويُعَلَّقُ بين عمودَيْن عالِيَيْنِ ، ويوضعُ فيه حجرٌ كبير ، ويُرْمَى به السور . فتارةً يقعُ وسْطَ المدينةِ ، فيصيبُ السكان ، وتارةً يصيبُ السورَ فيهدمُ جزءًا منه .

وعرفَ الرومُ أن مُدُنهم وبلادَهم سقطتْ فى يدِ الرشيدِ وجيوشِه ، مدينةً وراءَ مدينةٍ ، ولم تستطعْ المقاوَمةَ والدِّفاع . فأسرعوا إلى مدينتِهم الحصينةِ ، هِرَقْلة ، ودخلوها وأقفلوا أبوابَها ، وقالوا :

— سنبقى فى حِفْظٍ وصَوْن ، وقد خزَنّا ما نحتاجُ إليه من زادٍ وطعام . أما الرشيدُ فإذا طالتْ إقامته خارجَ الأسوارِ نَفِدَ زادُه ، وجاعتْ جيوشُه ، ورجعَ عن مدينَتِنَا مهزوما ، كما رجعَ غيرُه من قبل .

ووصلتْ جيوشُ الرشيدِ إلى مدينةِ هرقلة ، ورأى

الرشيدُ متانةَ أسوارِها ، وصعوبةَ الوصولِ إليها ؛ فأمر بنصبِ المجانيقِ الكبيرةِ ، والمجانيقِ الصغيرةِ السريعةِ ، التى تسمى العَرَّادَاتِ .

ووقفَ الجنودُ يُسَلِّطُون حجارَتَهم وسهامَهم على المدينةِ وأسوارِها ليلا ونهارا .

حتى ضعُفَ الروم ، وطالتْ عليهم مدةُ الحِصار . وإذا ببابِ المدينةِ يُفْتَحُ ، ويخرجُ منه فارسٌ رومى ، طويلٌ ضخم ، قد ركبَ فرسَهُ وسلاحَه الكامل . . . فوضعَ على صدرِه درعا من الحديد ، ولبسَ على رأسِه خُوذَةً نُحاسِيَّةً ، وعلَّقَ سيفا فى كتِفِه ، وأمسكَ رُمحا فى يده ، وسار حتى اقتربَ من صفوفِ المسلمين ، وصاح قائلا :

— أيها الأعداء ، قد طالَ حصارُكم لنا ، وكثرَ اعتداؤكم علينا ، ونحن نريدُ أن نُنْهِىَ الحربَ معكم ،

ونَفْرُغَ من قتالِكم . فهيا أرسلوا فارسا منكم ليبارزَنى .

فسكتَ المسلمون ، ولم يخرجْ إليه أحدٌ منهم ؛ لأن الرشيدَ كان نائما ، وكانوا لا يعمَلُون عملا إلا برأْيِه وإِذْنِه .

فلما رأى الفارِسُ الرُّومِيُّ سكُوتَهم ، ظنَّه ضعفا وخوفا منهم ، فاغترَّ وصاح :

— أخرجوا رجلين ... أخرجوا ثلاثةً ... أخرجوا أربعة ...

وأخذ يزيدُ العدد ، والمسلمون لا يُجِيبُون . حتى طلبَ عشرين رجلا .

ولما لم يخرجْ إليه أحد ، رجع إلى مدينتِه ، وأقفلَ البابَ خلفَه ، وقومُه يصفقون له على الأسوار .

ولما صَحَا الرشيدُ من نومِه ، وعرفَ خبرَ هذا الفارس المغرورِ ، اغتاظَ وغضب ، ولامَ غِلْمَانَه ؛ لأنهم لم يُصَحُّوه من النوم .

فقال له أحد القواد :

— لا تغضبْ يا أميرَ المؤمنين ولا تأسفْ على ضَيَاع الفُرْصة ! ! فإن هذا الفارسَ سيدفعُه غرورُه إلى الخروج وإعادة الطلبِ غـدا . وما دمتَ قـد رضيتَ بمبارزتِه فسيخرجُ إليـه واحدٌ منا ويقطعُ رأسَـه ، ويُلقِيهِ تحتَ قدميك بعون الله .

فقال الرشيد :

— لابدَّ أن نختار من يبارزُه من الآن . . . فمن منـكم يرغبُ فى الخروجِ إليه غدا ؟؟

فردّ القائد قائلا :

— والله يا أميرَ المؤمنين ، إنك لتعلمُ أننا خرجنا من بيوتِنا وتركْنا نساءَنا وأولادَنا ؛ لنجاهدَ فى سبيل الله ، وننصرَ دِينَنَا ووطَننا ، ونردَّ كيْدَ أعدائِنَا . فمن انتصرَ منا ، فازَ بشرفِ النصرِ فى الدنيا ، ومن مات ، فازَ بالشهادةِ

التى تُدْخِلُه الجنةَ بغيرِ حساب . وكلٌّ واحدٍ من جنودِك وقوّادِك يتمنّى أن يخرجَ لهـذا الرُّومِيِّ الكلبِ ؛ ليفوزَ بإحدى الحُسْنَيَيْنِ : النصرِ أو الشهادَة . فاختَرْ أنتَ يا أميرَ المؤمنين من تشاء ، وكلُّنا أندادٌ له وأكفاء .

فظهَر الرِّضا فى وجه الرشيد وقال :

— باركَ اللهُ فى جنودِ المسلمين ! ! إذاً يخرجَ إليه هَرْثَمَةُ بنُ أَعْيَن ، أو يَزِيدُ بن مَزْيَدَ ، وينصرُ اللهُ من يخرجُ منهما ! !

وكانت جيوشُ المسلمين — قبلَ الرشيدِ وبعدَه — تَضُمُّ طائفةً من الجنودِ يُسَمَّوْنَ المُطَّوِّعِين ، وهم الذين يَتَبَرَّعُونَ وَيَتَطَوَّعُونَ بالجهادِ ، والقتالِ فى سبيل الله ، بدونِ دَعْوَةٍ أو أَجْرٍ . وكانوا يقومون دائماً بأخطرِ الأعمالِ الحربيةِ ، التى يقومُ بها الفِدَائِيُّونَ فى عصرِنا هذا .

فلما سمعَ المطّوِّعُونَ كلامَ الرشيدِ ، ثاروا وضَجُّوا وتقدَّمَ واحدٌ منهم ، فقال :

— كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلمَ ، يسمعُ مَشُورَةَ أصحابِهِ فى الحربِ ، ويعملُ برأيهم إذا ظهرَ صوابُه وسَدَادُه . فهل تسمحُ لى يا أميرَ المؤمنين بإبداءِ الرأى ؟!

فأجابَه الرشيدُ قائلا :

— إنى ما جلستُ هذا المجلسَ بينكم إلا لِأَسْمَع آراءكم ! فماذا تُشِيرُ علينا ؟! قل ، واللهُ يُسَدِّدُ رأيَك ، ويُرْشِدُنا ويُرْشِدُك إلى التوفيقِ والصواب ؟!

فقال المطَّوِّعُ :

— إن خروجَ قائد كبير من قوادك يا أميرَ المؤمنين خطرٌ كبير ، لأنه إذا انتصرَ على الرومىّ لم يكسِبْ شرفا جديدا ، وإذا انتصرَ عليه الرومى ـ لا قدَّرَ الله ـ كان فضيحةً كبيرةً لجيوشِ المسلمين ، وطمِعَ فيهم الرومُ إلى الأبَد .

والرأىُ عندى أن يخرجَ إليه جندىٌّ واحدٌ من عامَّةِ الجنودِ ، فإذا غلبَـهُ وقتلَه امتلأتْ نفوسُ الرُّومِ رُعبا زيادةً على رُعْبِها ، وإذا هُـــزِمَ وقُتِلَ خرجَ غيرُه من جنودِكَ ، ولم يكن فى ذلك عارٌ ولا فَضِيحَةٌ .

فاستحسنَ الحاضرون رأيَه ، واستصوبَه الرشـــيدُ وقال له :

— قد أَلهمَك اللهُ الصوابَ . وغدا نختارُ منـكم واحدا إن شاء الله .

وبات الرشيدُ فى هـذه الليلة سَهْرَانَ قَلِقاً ، يرى الصبحَ بَطِيءَ الطلوعِ ، ويَعُدُّ اللحظاتِ والدَّقائِقَ .

وفى الصباحِ فُتِحَ بابُ المدينةِ ، وخرجَ منه الفارسُ الرُّومِىُّ ، فى هيئتِه السابقةِ ، ووقفَ وَسْطَ الميدانِ وأخذ يَصِيحُ وينادى كما فعل بالأمس .

فتقدَّمَ واحدٌ من المطَّوِّعِينَ ، اسمُه ابنُ الجزَرىِّ ،

وكان مِمَّنْ يُقِيمُونَ على حُدُودِ بلادِ الرُّومِ ، وله معهم حوادثُ مشهورَةٌ ، وفى قلوبِهم منه خوفٌ ورعبٌ ،

وطلب من الرشيدِ أن يأذن له بالخروج إليه ، فأذنَ له الرشيدُ ، ودعا له بالنصرِ ، وأعطاهُ سيفا ودرعا .

وسار ابنُ الجزَرِيِّ إلى الميدان حيثُ يقفُ الرومِيُّ ، وسار معه عِشْرُونَ من أصحابِهِ المطَّوِّعِين .

فلما رآهُمُ الرُّومِيُّ وعدَّهم قال بغرور :

— كان الشرطُ عشرين ، وأنتم الآن واحدٌ وعشرون ، ولكن لا بَأْسَ ، تَقَدَّمُوا ، فإِنِّى سأغلبكم جَمِيعاً .

فأجابوه باحتقارٍ :

— لن يخرجَ إليك إلا واحدٌ منا فقط .

وبرزَ ابنُ الجزرِيِّ أمامَ أصحابِهِ ، فلما رآهُ الرومِيُّ قال له :

— أستحلِفُكَ باللّه ! هل أنتَ ابنُ الجزَرِيِّ ؟ !

فأجابَه بعزمٍ ثابت :

— نعم ، أنا ابنُ الجزَرِىّ الذى تعرفون وَقائعَهُ فيكم ! !

ودارتْ المعركةُ بينَ الفارسيْنِ ، وخرجَ الرومُ كُلُّهم إلى أسوارِ المدينةِ ، ووقفوا عليها يشاهدون المبارزةَ ، ويشدُّون من عزمِ صاحبِهم .

واستمرَّ القتال بينهما فترةً طويلَةً ، ولا يجدُ واحدٌ منهما فُرْصَةَ لقتلِ الآخرِ ، حتى تَعِبَ جَوَادَاهُمَا وأَوْشَكا أن يَقِفَا عَنِ الحركة .

فَهُزِمَ ابنُ الجزرى أمامَه ، وتراجعَ إلى الصُّفُوفِ ، وما كاد الرُّومُ يَرَوْنَ ذلك ، حتى صاحوا فَرِحِينَ ، وصفَّقوا ، ورَقَصُوا على السُّورِ . وحزِنَ المسلمون واكْتَئَبُوا أشدَّ الكآبَةِ والحزنِ . ولم تكنْ هَزِيمةُ ابنِ الجَزَرِىِّ وتراجعُه إلا حيلةً ومَكيدَةً ، فلما رأى الرومِىَّ

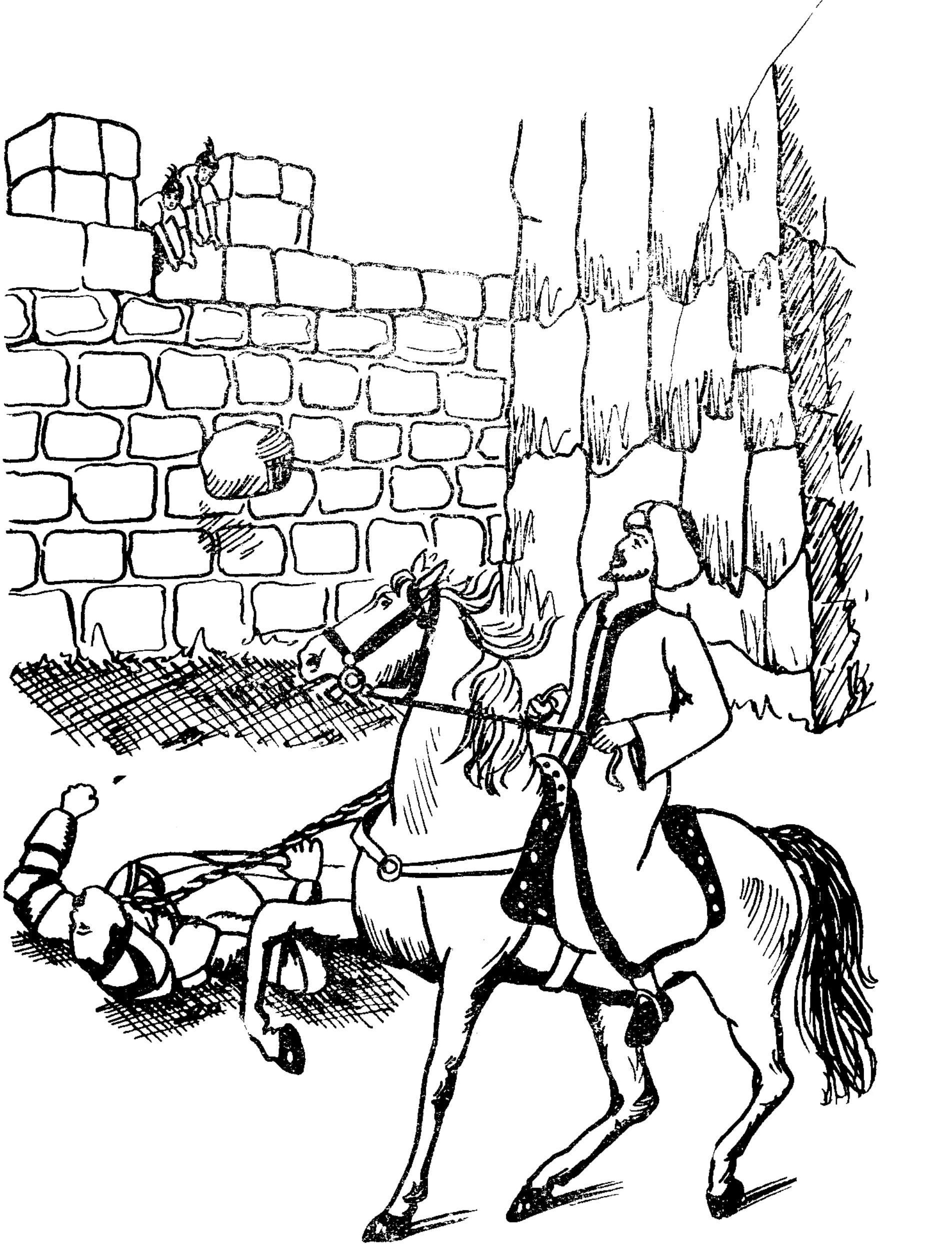
يتبعه ، ألقى عليه حبْلًا ، فوقعَ حولَ عُنُقِه وجذَبَهُ بشِدَّةٍ ، وهو يركُضُ فرسَه ، فاخْتَنَقَ ووقعَ منه سِلاحُه ، فرجعَ عليهِ وضربَهُ بسيفِه فقطعَ رَأسَه .

فصفَّقَ المسلمون وفرِحُوا ، وأسرعَ الرومُ فأغلَقُوا الأبوابَ ، ونزلوا من فوقِ الأسوارِ فى خِزىٍ وحُزْنٍ وغَمٍّ .

وصاح الرشيدُ :

— هَيَّا ارْموهم بالنارِ والحجارةِ ، فلن يُقاوِمُوا بعد الآن .

فوضعَ الجنودُ الكَتَّانَ والنِّفْطَ فوقَ الحجارَةِ ، فى المجانيقِ ، وأشعَلُوا فيها النارَ ، وقذفُوا بها المدينةَ وأسوارَها ؛ فاشتعلتِ النارُ فى الأسوارِ ، والدورِ ، والمتاجرِ . وذُعِرَ الرومُ ، وعَرَفُوا أنهم لا بقاءَ لهم أمام هذه القوَّةِ المُهْلِكَةِ . ففتَحُوا الأبوابَ ورَفَعُوا راياتِ الاستسلامِ



فاختنق ووقع سلاحه . . .

والخضوع ، وطلبوا الصُّلْحَ والأمانَ .

وبات الرشيدُ ليلتَهُ فى قصرِ حاكمِ هِرَقْلَةَ ؛ وفى الصَّبَاحِ جلسَ ليسمعَ مدائحَ الشُّعَرَاءِ ، ويتقبَّلَ تهنئةَ القُوَّادِ والمهنِّئِين . ثم وقَّع معاهدةَ الصلحِ بينَه وبين الرومِ ورجع بجيوشِهِ إلى بغدادَ ، وعلى رأسِه تاجُ النصر .



- ٢ -

فى مجلس الرشيد

جلس الخليفة هارون الرشيدُ يوماً فى قصره ، وأراد أن يمتِّعَ نفسَهُ ويريح قلبَه بسماعِ الغِنَاءِ والموسيقا ، فحضر المغنُّونَ والنُّدَمَاءُ ، الذين كانوا يحضرونَ مجالسَ غنائِه وطرَبِه وراحَتِه ، ويجدُ فى جلوسهم مُتْعَةً وسُروراً لنفسِه .

وبعد أن دارتْ عليهم أكوابُ الشرابِ الحلالِ من عَصِيرِ الفواكِهِ ، ومَنْقُوعِ الزَّبِيبِ والتَّمْرِ ، الذى كان يشربُه الرشيدُ فى مجالِسِه الخاصَّة ، غَنَّى إسْحاقُ المَوْصِلىُّ صوتاً جميلاً .

وكان إِسْحَاقُ وأبوهُ إِبراهيمُ الموصلىُّ أكبرَ المغنِّينَ فى عصرِ الرشيد ، وأشهرَهُم فى الغِنَاءِ والتَلْحِين ، وكانا لشُهْرَتِهما العظيمةِ فى الغناءِ ، لا يَسْمَحان لأحدٍ أن يَنْتَقِدَ غناءَهما ، أو يُظْهِرَ عَيْبًا فيه .

وكان للخليفةِ هارونَ الرشيدِ أخٌ اسمُه إبراهيمُ بنُ

المهْدِىِّ ، تعلَّمَ الغناءَ والمُوسِيقَا من صِغَرِه ، وبرعَ فى اللَّحْنِ براعةً فائِقَةً . على الرغمِ من أنَّهُ ابنُ خليفةٍ . وأخو خليفةٍ .

ولَكِنَّه كان لا يُغَنِّى إلا لنفسِه ، أو أصدقائِه المخلصين ، أو أهلِ بيتِ الخلافة . فلم يكن كغيرِه من المغنِّينَ الذين يتكَسَّبون بِغِنَائِهمْ للناس .

ولما انتهى إسحاقُ من غناءِ صَوْتِه أمامَ الرشيدِ فى هذا المجلس ، أدركَ إبراهيمُ بنُ المهدىِّ أن إسحاقَ أخطأَ فى غنائِه . فقال له :

— لقد أخطأْتَ يا إسحاقُ فى بعضِ الغناء ! !

فكَبُرَ على نفسِ إسحاقَ ، وعَزَّ عليه أن ينتقِدَ أحدٌ غِنَاءَهُ ، حتى ولَوْ كان إبراهيمَ بنَ المهدىِّ . فالتفتَ إلى إبراهيمَ بِغُرُورٍ وكِبْرٍ وقال له :

— لَيْسَتْ هذه صِنَاعَتُكَ يا إبراهيمُ ، وليس هذا

الصوتُ مِمَّا تعرِفه أو تُحْسِنُ مثْلَه ! ! فكيفَ تَعِيبُه وتُخَطِّئُنِي فيه ، وأنت لا تعرفُ أصولَ صنْعَتِه وتلحِينِه ؟ ! وإذا كنتَ عالماً به ، عارِفاً بطريقتِه ، فأعِدْهُ كما تعرف . وسأبَيِّنُ خَطأَكَ فيه ، من أولِ الصوتِ إلى آخرِه .

وما كاد إسحاقُ يُسْمِعُ إبراهيمَ هذا الردَّ الخشِنَ الجاف ، حتى تنبَّهَ إلى نفسِه ، وشعَرَ بأنه أخطأ ، وأنه قد يُغْضِبُ الخليفةَ الرشيدَ ، لأنَّهُ أَغْلَظَ لأخيه إبراهيمَ فى ردِّه . فوقفَ مُسْرِعاً واقتربَ من مقعدِ الرشيدِ ، وقبَّلَ الأرضَ أمامَه وقال :

— يا أميرَ المؤمنين ، هذه صَنْعَتِي وصنعةُ أبى . وهى التى شرَّفَتْنا بالوصولِ إلى مجالِسِكَ الموَقَّرَة ، وجعلَتْنَا من جُمْلَةِ خدمِك وعبيدِك ، وبها نكسِبُ رِزْقَنا ومعاشَنا . فإذا رأيتُ أحدا يعيبُها وينقدُها ، وهو لا يعلمُ أصولَها ، لم أجِدْ بُدًّا من الدِّفاعِ عنها . وقد تدخَّلَ إبراهيمُ فيما

نُتْقِنُه ونُحْسِنُه ، ولا يتقنُه أحدٌ سِوانا .

فابتسمَ له الرشيدُ وقال :

— لا شكَّ أنكَ صاحبُ حقٍّ فى دفاعِكَ عن صنعتِك يا إسحاق ، فلا لَوْمَ عليك ولا عِتاب .

فاطمأنَّ إسحاقُ وهَدَأَتْ نفسُه . واغتاظَ إبراهيمُ ابنُ المهدىّ أَشدَّ الغيظِ ، ولكنه كَظَمَ غيظَه وكتَمَه .

وطرأَتْ للرشيدِ حاجةٌ اضْطَرَّتْه أَن يُغَادِرَ المجلس ، ويتركَهُ فترةً قصيرةً من الزمن . فنظرَ إبراهيمُ بنُ المهدى إلى إسحاقَ باحتقارٍ وغيظٍ وقال له :

— وَيْلٌ لك يا إسحاق ؟ ! أَتجتَرِئُ علَىَّ ، وتردُّ علَىَّ هذا الردَّ يا لَئِيم ؟ !

فَغَضِبَ إسحاقُ مرةً أَخرى ، وثارَ لكرامته التى أَهانَها إبراهيمُ أَمامَ الحاضرين وقال له :

— لماذا تسبُّنِى وتشتُمُنِى الآنَ ؟ ! هل تعتقدُ أَنى

لا أملكُ لسانا أسبُّ به وأشتُم ؟ ! إنى لا أسبُّك لأنك ابنُ الخليفةِ . ولولا هذا لسببْتُكَ وشتمتُكَ . وأستطيعُ أن أسبَّ خالَك وأشتُمَهُ ، وأُذَكِّرَكَ بصنعتِه .

وكان خالُ ابراهيمَ بَيْطَارًا يُدَرِّبُ الخيلَ ، ويعلِّمُها حُسْنَ السيرِ والمشى . ولما وصلَ إسحاقُ إلى هذا القدرِ من كلامِه ، أدركَ أن ابراهيمَ سيشكُوهُ للرشيدِ عند عودتِه ، وأن الرشيدَ سيسألُ الحاضرينَ عما جرَى بينهما ، فأراد أن يُرْضِيَ الرشيدَ ، ويُبْعِدَ غضبَهُ عن نفسه ، ويتَّهِمَ إبراهيمَ ، فاستمرَّ يقول له :

— وإنى واثقٌ أَنك لا تعيبُ غنائى ، لأنَّ فيه عيبًا أَو خطأ ، ولكنكَ تحقِدُ علىّ ، لأنى خادمٌ مخلصٌ لأميرِ المؤمنين ، كما تحقِدُ على كلِّ خدمِه وأَتباعِه ، وخدمِ أَولادِه وأَتباعِهم . وأَنت تُمَنِّى نفسَكَ بالخلافةِ من بعدِه ، وتريدُ أن تصنَعَ لنفسِك حاشيةً مثلَ حاشيتِه .



لماذا تسبني وتشتمني الآن . . .

وأنا أدعو الله ليلا ونهارا ، أن يجعلَ الخلافةَ فى الرشيدِ وأولادِه إلى الأبد ! ! . وأن يقتُلَكَ بسبب طمعِكَ وغَدْرِك ، قبلَ أن تحَقِّقَ آمالَك . فإذا صارت إليك الخلافةُ ، فإنى أدعو الله أن يميتنى قبلَ أن أراك خليفةً .

فلما عاد الرشيدُ إلى المجلس ، بادرَ إبراهيمُ وأسرعَ بالشكوَى إليه . فسألَ الرشيدُ إسحاقَ قائلا :

— أَحَدَثَ كلُّ هذا يا إسحاق ؟ !

فقال إسحاق :

— سَلِ الحاضرين يا أمير المؤمنين .

فسأل الرشيدُ الحاضرين ، فقصُّوا عليه كلَّ ما حدث بينهما من ساعةِ قِيامِه إلى ساعةِ عودَتِه .

فلما سمعَ الرشيدُ أولَ الحديثِ ظهرَ الغيظُ فى وجهِه ، وصار غيظُه يزدادُ ، ثم يزدادُ ، كلما سمعَ جزءا جديداً

من الحديث . حتى سمعَ ما يتصِلُ بأطماعِ إبراهيمَ في الخلافة ، فأشرقَ وجهُه ، وظهرتْ عليه علاماتُ الرضا والاِرْتِيَاح .

ولما فرغَ المتكلمُ من شهادتِه ، نظرَ الرشيدُ إلى إبراهيمَ وقال :

— لا ذنبَ لإسحاقَ ، ولا لَوْمَ عليه . . . شتمتَه وسَبَبْتَه ، فعرَّفَك أنه لا يستطيعُ أن يَسُبَّكَ ويشتمَك . عُدْ إلى مجلسِك ، واتْرُكْ هذا الأمرَ .

وانتهى المجلسُ ، واستأذَنَ الحاضرون والندَماء ، وانْصرفَ المغنُّون ، وأرادَ إسحاقُ أن ينصرفَ معهم ، ولكنَّ الرشيدَ قال له :

— مَهلَكَ يا إسحاقُ ، فإنى فى حاجةٍ إليك .

فانتظرَ إسحاقُ فى قلقٍ وخوفٍ ؛ مع أنَّ الرشيدَ كان يبتسمُ فى وجْهِه ابتسامةَ الرَّاضى عنه . فلما خَلَا

المجلسُ ، وانفردَ الرشيدُ به ، نظرَ إليه نظرةً قاسيةً وقال له :

— وَيْلَكَ يا إسحاقُ ! ! أتظنُّ أنِّى لم أفهمْ قولَكَ وسبَّك لإبراهيم . . . ؟ ! إنك والله سببتَه أفظعَ السبِّ والشتمِ ، وقد عَرَّضْتَ نفسكَ بهـــذا الفعلِ القبيحِ والطيشِ ، إلى أَوْخَمِ العواقِب ، وأسوإِ النِّهايَاتِ ! !

فقال إسحاقُ فى تضرعٍ واستعطافٍ :

— وكيف يا أمـــيرَ المؤمنين ، أَتعرَّضُ لأسوإِ العواقب ، وأنا فى رِعايَتِكَ وحِماكَ ؟ !

فأجابَهُ الرشيد :

— طار عَقْلُكَ ، وذهبَ صوابُكَ ، يا إسحاق . . . أتظنُّ أنى كنتُ أضربُ إبراهيمَ لو ضربَكَ ، وهو أخى ؟ ! أتحسِبُ أنى كنتُ أقتُلُ إبراهيمَ لو أنه أمرَ غِلمانَه فقتلوك ! ! إنَّكَ جاهلٌ مغرورٌ يا إسحاق ! !

فقال إسحاق :

— أيَّدَكَ اللهُ يا أميرَ المؤمنين ! ! إنك ما زلتَ تُعَلِّمُنَا كيف نَتَصَرَّفُ مع الناسِ . التصرفَ الذى لا تسوءُ عواقِبهُ

ولكنى أصبحتَ يا مولاى أخاف أَن يقتلنى إبراهيمُ إذا بلغَه قولُكَ هذا . ولا بدَّ أَن يكونَ قد بلغَهُ الآن ؛ لأن للحيطانِ آذانا تسمعُ ، وأَلسنةً تَنْقُل .

فتنَبَّهَ الرشيدُ إلى الخطرِ الذى يهدِّدُ حياةَ إسحاق ، وقال لمسرورٍ خادمِه الخاص :

— أَسرعْ وراءَ إبراهيمَ وعُدْ به إلىّ .

فلما خرجَ إسحاقُ ، وحضرَ إبراهيمُ بنُ المهدى ، استقبلَه الرشيدُ بِعبُوسٍ وغِلْظَةٍ وقال له :

— كيف تَسْتَهِينُ بمجلِسِى يا إبراهيمُ ؟ ! وكيف تشتمُ خادِمِى وابنَ خادمى أَمامِى ؟ ! أَلا تعلمُ أنَّ إسحاق

صَنِيعَتِى وابنُ صَنِيعَتِى ، وقدِ اصْطَفَيْتُهُ واخترتُه من بين المغنِّين ، ليكونَ سَمِيرِى ونديِمِى ؟ !

فأجابَ إبراهيمُ وهو يرتَجِفُ من الخوفِ والألم :

— العفوَ يا أَميرَ المؤمنين ! ! إنى ما شتمتُه إلا بعدَ ما شتمنى وسبَّنى ، واجْترَأَ علىَّ فى حضرتِكَ الشَّريفة . وكلُّ ما حدثَ منى فى بادئ الأمرِ أَنى أَدركتُ خطأً فى غنائِه فأحببتُ أَن أُصْلِحَه ، فعزَّ عليه هذا وصعُب . ولو كان عالمـا بِفَنِّه حقيقةً يا أَميرَ المؤمنين ، لمـا ثارَ ولا غضبَ من تنبيهِه إلى الخطأِ ، لأنَّ العلماءَ دائمـا يُرَحِّبُون ويفرحون بمن يُصْلِحُ لهم أَخطاءَهم . . .

فتظاهرَ الرشيدُ بزيادَةِ الغضَبِ وقال :

— ومن أَنت ياجاهلُ حتى تُصلِحَ لإسحاقَ خطأَه ؟ ! إن إسحاقَ شرب هذه الصنعةَ مع لبنِ الرَّضَاعَةِ . أَلا تعرفُ أَنه ابنُ إبراهيمَ الموصلىِّ ، شيخِ المغنين فى هذا العصر ؟!

ولـكنَّ جَهْلَكَ وغرورَك ، جعلاك تُدْخِلُ نفسكَ فيما لا معرفةَ لك به ، ولا شأنَ لك فيـه ؛ حتى فضَحَك إسحاقُ وأَخْزاك ، وطلبَ منك أَن تُعيدَ الغناءَ . وهكذا يفضحُ الجاهلُ المغرورُ نفسَه دائما ، بتدخُّلِه فيما لا يَعْنيه ولا يهمُّه .

* * *

كان الرشيدُ يُسْمِعُ إبراهيمَ هذا التوبيخَ الشديد ، وابراهيمُ يرتعدُ وَيَضْطَرِبُ من الغيظِ والخوفِ ، ولا يعرفُ جواباً يُجِيبُ به .

ثم قال له :

— اسمع يا إبراهيم ، يُخَيَّلُ إلىَّ أَنك ستخرجُ من مجلسى وتُحَرِّضُ غلمانَكَ على إِسحاق ؛ لِيُلْحِقُوا به الأذَى والضَّرر . . . ! ! وأَنا أُقسمُ بالله وملائكتِه وكتبِه ورسلِه ، وأَبرأُ من نَسَبِى إِلى المهدىِّ ، لئن أَصابَ

إسحاقَ مكروه ، فآذاه أَحدٌ ، أَو سقطَ عليه حجرٌ من السماء ، أَو وقعَ من على دابَّته ، أَو سقطَ عليه سقفُ بيتِه ، أَو ماتَ فَجْأَةً من غيرِ سَبَبٍ ظاهر ، لأقتلنَّكَ به ! ! وأَنتَ أَعلمُ بقَسَمِى . . . قُمْ الآنَ فاخرج ! !

فوقفَ ابراهيمُ وهو يرتجف ، وخرجَ من مجلسِ الرشيدِ يَجُرُّ سَاقَيْهِ جرًّا من الرُّعبِ والخوف ، ولا يكادُ يجدُ النَّفَسَ الذى يتنفسُه من الضِّيقِ .

* * *

ومضتْ أَيامٌ وأَيام ، ثم دخلَ إسحاقُ على الرشيدِ فوجدَ إبراهيمَ بنَ المهدى فى مجلسِه . فقبَّلَ الأرضَ بين يدَىِ الرشيدِ ، وأَعرضَ عن تحيةِ ابراهيمَ أَو النظرِ إليه ، واختارَ الجانبَ الآخرَ من القاعةِ فجلس فيه .

ورأَى الرشيدُ ذلك ، فصارَ ينظرُ مرة إلى إسحاق ، ومرة إلى إبراهيمَ ويضحك ، ثم قال لإبراهيم :

— أنا أعلمُ يا إبراهيمُ أنك تُحِبُّ إسحاقَ ، وتعشَقُ غِناءه ، وتريدُ دائماً أن تنقُلَ عنه ألحانَه ، وتتعلَّمَ عليه أصولَ صنعتِه . ولكنك لا تنالُ رغبتَك هذه إلا إذا أحسنتَ إليه ، وبالغتَ فى مكافأتِه وإكرامه . فإذا أرضَيْتَه بلغتَ منه ما تريدُ وتَبْغى .

ثم نظرَ إلى إسحاقَ وقال له :

— قُمْ إلى مولاكَ وسيِّدِك ، وابنِ مولاك وسيدِك ، فاعتذرَ إليه ، وقبِّل رأسَه ، واطلبْ منه الصَّفحَ والعَفْو .

فقامَ إسحاقُ وقبلَ رأسَ إبراهيمَ . ووقفَ إبراهيمُ وقبَّلَ جبينَ إسحاق .

* * *

وهكذا أصلحَ الرشيدُ بينهما ، وحفظَ لكل منهما حقَّه ومقدارَه .

مطبعة نهضة مصر
الفجالة - القاهرة

قصص الرشيد

١ — الرشيد يتحدث
٢ — مَجد البرامكة
٣ — نكبة البرامكة
٤ — الأمويُّ البرىء
٥ — فتح هِرَقْلَة
٦ — الجزيرة العائمة
٧ — فى جبال الماس
٨ — صانع السروج
٩ — كتاب لقمان الحكيم
١٠ — ليلة فى ضفاف دجلة
١١ — تاجر البصرة
١٢ — سجادة أبى الكاظم

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر ومطبعتها
الفجالة - القاهرة

مطبعة نهضة مصر
الفجالة - القاهرة